احمد دحبور

الخيل والماضي

ورجعتُ ، من وادي الدوار ، مجوّفَ الدمِ ، في دمي عريٌ رهيبْ
وعلى خطاي تهرُّ خارطتي ، ظلالي ، صفرةُ الحسّ النخيليّ الكئيبْ
ماذا حملتُ سوى العروق الجوفِ ، من إبحاريَ المعميّ ، والنسغِ المرمّد والبوارْ
والرايةِ الاولى ممزقةً ، واخيلةٍ يزوّرها الحصارْ ؟
حطباً رجعتُ ، يبستُ في الوادي الغريبْ
وجهي مرايا تحملُ المنفى ، تعمّقه ، وتستتلي كوابيسَ النهارْ :
أترى العشيرةُ رايتي خِرقاً ؟ دمي خِرقاً ؟ وأخيلتي مجمّدة على صدر المغيبْ ؟
وعيونُ اطفال العشيرة ! آه سيخ الكيّ ، كيف عيون اطفال العشيرة
بي تحدّقُ ، تستريبْ ؟
ماذا ، تحدّق ؟ وجهيَ الازليّ عاد طحالباً ، مجرى غبارْ !
راهنتُ عن صحراء سمرته واطفالي ، خسرتُ على صخور الفكر في وادي الدوارْ
أوّاه لو يمتد نسغ الخصب جسراً ، جسرَ نبضٍ ، لي ، فأنسف ،
اعبر الحسّ الغريبْ
واشدّ اعصابي اراجيحاً لاطفال العشيرة في النهارْ
أوّاه لو — رباه ، كيف ؟ وفي رقى عينيّ اطفالٌ تموت على الصليبْ ؟

وتشدّني عن صخرة الكابوس مركبةُ المغيبْ :
ماذا احسّ هنا ؟ خيولاً تحرث الآباد ، تفتح لي نوافذ الادّكارْ
وأرى ، إلهي ! نخلتي الاولى على الشطّ المغبّش . ما ارى ؟ تلّ الدموع والانتظارْ

تترهّلُ الساعاتُ في دمها (يطول الليلُ) تهرمُ ، وانتظارُ الاسمرِ الخيّالِ
لم يَعْدُ انتظارْ
أترى تخبّرها ، تخبّرها الخيول : « نراه عاد اليك » ، آهٍ عاد ، لكن كيف عادْ
حطباً ، بلا نسغٍ ، بلا نبضٍ سوى الهبّاتِ باردةً متى انحرّ الرمادْ :
– يا أمُّ يا سفرَ النخيلِ ، العمرِ ، يا ثوبَ الحِدادْ
حطباً اعود ، على لساني الفُ وجهٍ اسود يقعي ، يمزّق خضرةَ الحرف الحبيبْ
هل تحرقين بقيتي فأعود – كالنخل الوضيء – اعود كالرمح المهيّأ للجهادْ
– ولدي ! رجعتَ ؟ رجعتَ . لا . وهمٌ تضفّره خيالاتُ المغيبْ
ولدي على عينيه ينمو البرقُ ، نكهة لونه اشتمّها كالنخل ، كالرمل الخصيبْ
– ربّي تنكّر حسُّها البكر المعرّش ، لي ، وعادت فوق رمل الشطّ
تنتظر البشارهْ
تُعلي مراياها لألمحها ، مراياها – المنارهْ

أيلوح وجهي ، في مرايا النخل ، جرحاً كافراً ، رملاً غريبْ ؟
عبثاً افتّشُ عن خيالي . صورةُ القرصان تسكن وجهيَ العاني الكئيبْ
وأرى مرايا النخل ترسم ناقتي الخضراءَ ، عمياءً . تنادي الضوءَ من دمها . تخيبْ
تصطكُّ ، تجهضُ معدناً هشّاً ، حجارهْ
اوّاه اترابي ، كنوز دمي ، بلا وهجٍ ، حجارهْ
من رصّكم موتي بتابوت النهارِ ؟
– حنوطُ قرصانِ الحضارهْ
للبحرِ ، مثلك شدّنا القرصان للبحر المزوّر ، جالدَ الصحراءَ فينا
في البحر خلّفنا توابيتاً مسطّحةً تضيّع ، في جنازتها ، السنينا
– مثلي ؟ ترمّد حسّكم بالنخل ، جاس البحرُ ، في دمكم ، مع المصل الحديدْ
متسّمْ ؟ تحولتم حراباً تكسح الاطفال والماضي الثمينا ؟
من يفتدينا ؟ يشرع الوجه العريق ؟ يميت موتانا ، ويبعث من جديدْ
من يبعث الصوت الإله ؟ يعيدنا للريح ؟ يقذف للكلاب شواءَ آذانِ العبيدْ ؟
– لا صوت ينبعُ ، من عروق الغيب ، يفصلنا عن الصوت الإلهِ جدارُ نارْ

هل تخرق النارُ العصيبةَ ؟ تفتدي السرّ الكبير من الدمارْ ؟
السرّ وجهُ الارضِ ، جسرُ النبضِ ، أغنية الجذور الخضر تدوي في القرارْ
هل تفتدي ! والناقةُ العمياء ، بابُ الخصب ، ينهبها الحصارْ ؟

لا شيء غير النوم ، فوق الرملِ . نمْ ، وسّع كوى الذكرى ، انطفىءْ كالآخرينْ
– كالآخرين ؟ أرى ركام الآخرينْ :
صوراً مفرّغة مفرّغة تداورها رؤى الفكر الهجينْ
وهنا بحانٍ عانسٍ تمتطُّ ألسنهم ، على رحم السنين الخضرِ ،
يحتلمون بالفادي – الجنينْ

ربّاه : ما جنت العشيرةُ ؟ كيف حلّت لعنةُ القرصان فيها ؟ كيف صكّ ،
تقمّص النخلَ الحِدادْ ؟
ربّاه حتى الريح ، في دمهم ، غبارٌ ميّتٌ يبكي له العمرُ الكئيبْ
من يغسل التاريخ ، يرفع عن نوافذه السوادْ ؟
أتظلّ أوجههم مهاجرةً ؟ تخاف النارَ ، يبهرها اللهيبْ
فتجفّ ، تكفر ، تعفر الساعاتِ والرمل النخيليّ الخصيبْ
من يخرق النارَ العصيبةَ ؟ من يصلّي ؟ غيمةُ التجديف تمطرهم بلاهاتٍ ،
غوىً ، شكّاً مريبْ
عبثاً أصيحُ . الناي في صوتي ترهّل ، والصدى رملٌ سرابيّ الحوارْ
أترى جدار النار يفصل صوتي الوثنيّ عن باب الإله الرحبِ ، يفصلني الجدارْ
... وأدورُ ، تجلد عينيَ الجوفاءَ رؤيةُ ناقتي الخضراء في سأم القفارْ
والصوت يُعولُ فيَّ ، يُعولُ في القرارْ :
الناقة العمياء تحفر في السنين كُوىً ، ندوباً في عروق النخلِ ، تغتال الحنينْ
كانت صلاةَ الشاعر البدويِّ ، آهِ اليومَ تغتال الحنينْ
جفّ الحنانُ من العروقِ . الخصب من دمها تنصّل ، كيف تغتال الحنينْ
والصوت يُعولُ فيَّ : عدْ للنخلة الاولى ، انتحبْ ، أرِها بقايا الوشم
في الزند اليمينْ

– يا امّ : عدتُ ، تعثّر الدمُ فيّ : ناقةُ عمريَ الخضراءُ ، اترابي ،
وصوتُ الله احجارٌ تهرّ عن الجبينْ
الفٌ وانتِ هنا . جذورك ارهقتْ ، سملتْ ، وها خيالكِ المرصود عادْ
يا امّ : لا تنسي بقاياي العريقةَ ، حرّقيها علّني انسلّ من خيط الرمادْ
وأعودُ ...
– كيف تعود ؟ زنداً اجوفاً ؟ عيناً مهاجرةً مع الغيب الهجينْ
هل جئتَ الا حربةً في صدريَ الطاوي الحزينْ
عد واخرقِ النارَ العصيبةَ . احترقْ فيها ، استحلْ نخلاً يعرّش في السنينْ
يمتدّ سيفاً عبر لوحته يضيء الفتحُ ، ينبضُ من جديدٍ « ذو الفقارْ »
عدْ واحترقْ تفقِ الجذورُ ، يردّ نكهتَه البخورُ . متى ؟ وارجع لي
فتى يحنو ، ودارْ ؟
– دارٌ ؟ الهي مصلب الذكرى يحدّق ، نصف داري اغتاله موجُ البحارْ
تتفصّد الذكرى . دمُ الذكرى على عينيكِ ، رمحُ الامس قصّفه الدوارْ
يا امّ ألمحُ فوق عينك ، ألمحُ الاطفالَ والبسماتِ يهرسها الحطامُ من الجدارْ
والناقةُ الخضراء تشرد ، خنجرُ القرصان يمزع جلدَها النضر المهيبْ
يا امّ : ألمحُ – كيف ألمحُ ؟ – في الوحول جذورَ نخلتنا ، ضفيرةَ جارنا البدويّ
ممسحةً لسكّين الغريبْ
آهِ اغلقي عينيكِ تفتحْ ساعةُ النسيان لي صدراً ...
– ومن يطأ السوادْ ؟
– أأعود وجهي اخضرٌ بالنار . كيف ؟ وهيكلي حطبٌ . اعود من الرمادْ ؟
داري ، ضفيرة جارنا البدويّ ، اترابي ، وكنز الناقة الخضراءِ ...
– من يبقى معي ؟ – جفّوا ، وعرقُ الريح جفّ من الطرادْ
وحدي اعاني النار ؟ – لا ، يا امّ – في وجهي خيالات الهزيمهْ
المصلُ فتّح ، في دمي ، قبوَ الفراغ ، امتصّني البحرُ الفراغُ
وجوّفَ الرؤيا الحميمهْ
– ولدي ، ترى جفّتْ خلاياك القديمهْ
أتظلّ تجفل منك أنهارُ المدادِ ؟ تضيع ، لا دارٌ ولا وجهٌ ، تُبادْ ؟

عدْ واخرقِ النارَ العصيبةَ ، لا تميمة في يدي ، ماتت دعاءاتُ التميمهْ
في فورة الصلب انتهتْ ، ماتت دعاءاتُ التميمهْ

وانا امام النار غصّت بي رؤى الذكرى : لمحتُ على الدروب دُمىً ، صخورْ
تتنفّس الماضي المغبّش (وحده الماضي المغبّش) والنخيل بلا جذورْ
تتنفّس الماضي ، تلمّ أنوف اترابي وتزرقها بما ورثتْه من سمٍّ خرافيّ البخورْ
وعيون اترابي معلّقة ، بجانٍ عانسٍ ، تجري على رؤيا مخاتلةِ البشارهْ
تنحرُ من سمّ الصخور فترتمي وهماً بغابات الحضارهْ
أوّاه اترابي (ووجه النار يبرقُ) هل جذورهم استحالتْ في زوايا الحان غليوناً ، بخورْ ؟

وأرى امام النار مركبةَ المرايا ترسم النخلَ الإلهَ ، دمي الإلهَ ، مع النذورْ
وهنا تزغرد ، في دمي ، عبقاً ، تزغرد ساعةٌ خضراءُ ، ألمحُ ريشَها يحنو على كتف الرشيدْ
ربّاه : كيف نسيتُها ، خلّفتُها لزوابع الصحراء تطردها . وتعبثُ ، باستدارتها ، يدُ اللصّ البليدْ
ربّاه : كيف جريتُ ؟ (اترابي جروا) للبحر أبلعُ ملحَه الناريَّ — أستمري دُوارهْ
وأتيه ، يصلبني الحنوطُ ، يشدّني بالوهم قرصانُ الحضارهْ
والنارُ ، في عصبي ، الحضارهْ
فلتمسحِ النارُ السنينَ السود ، توغلْ في الصخورْ
ولتحملِ النبضَ الجسورْ
للبحرِ ، من دمنا ، من الرمل العريقِ . لتحمل النبضَ الجسور